الكلب والديك

فى كتاب «الحيوان» للجاحظ

بقلم محمد طه الحاجرى

يعرف كل قراء الجاحظ تلك الخصومة الحادة العنيفة التى أثارها أبو عثمان ، فى أول كتابه الحيوان ، بين الكلب والديك ، وتلك المناظرة الطويلة المسترسلة المفتنة شتى الأفانين ، والذاهبة فى شتى مذاهب الكلام بين صاحب هذا وصاحب ذاك ؛ دون أن يكون بينهما — فى حقيقة الأمر — خصومة ، أو سبب يدعو إلى المناظرة ، وإنما هى عبقرية الجاحظ التى لا تفتأ تبدع وتبتكر ، وأسلوبه المتدفق الذى لا يألو يشقق الكلام ويولد المعانى والصور . ذلك هو الظن السائد الذى نلجأ إليه كثيراً فى تفسير مثل تلك المناظرة الغريبة . ولكنى أحسب أن الأمر بين الكلب والديك أعجب من أن يكتفى فى تفسيره بتلك الصفة الغالبة ، والنظرة العاجلة المقاربة

فلقد أطنب الجاحظ فى تلك المفاضلة إطناباً غريباً ، حتى كسر عليها جزءين كبيرين من كتابه ، لعلهما يقربان من ثلثه ؛ ثم كأنه لم يكتف بذلك ، فترى حديث صاحب الكلب وحديث مناظره صاحب الديك يتخللان الأجزاء الأخرى

ثم إن هذه المفاضلة غريبة أيضاً فى كتاب الحيوان ، فقد سار الجاحظ فى أبواب الكتاب التى تلى ذلك الباب على منهج غير ذلك المنهج ، فليس إلا وصف الحيوان ، وبيان عاداته وطبائعه ، ومزاياه ومساوئه ، ورواية النوادر عنه ، والآثار الأدبية التى تدور حوله ، وحكاية كلام بعض علماء الحيوان والمنتبين بأمره ، مثل أرسطاطاليس وأقليدون ، دون أن يعرض للمفاضلة بين هذا الحيوان وذاك ، إلا قليلاً لا نكاد نلحظه . فالأمر بين الكلب والديك إذن ليس متمشياً مع طريقة الجاحظ فى الكتاب عامة ، فما الذى جعله يميزه من غيره ، ويسلك فيه أسلوباً على حدة

وأخرى لا سبيل إلى الاغضاء عنها ، وهى وجه اختيار هذين الحيوانين بالذات ليكونا موضعاً للمقارنة والموازنة والمفاضلة وما من سبب ، فيما يبدو ، يجمع بينهما ، أو يدع سبيلاً للتنظير والتفضيل . ولعل السبيل بين الضب والنون أو بين اللاح والحادى كما يقول البلاغيون أكثر استقامة مما هو بين الكلب والديك . ولو أن الجاحظ يريد المقارنة وحدها — والمقابلة بين خلقيهما ، لكان ذلك مستساغاً ؛ أما أن يجعلهما خصيمين ، وينصب لكل منهما صاحباً يهاجم باسمه ، ويدافع عنه ، ويناضل دونه ، دون أن يكون بينهما جامعة طبيعية إلا جامعة الحيوانية ، فأمر لا نستطيع أن نصفه إلا بالغرابة . فهلا ناظر بين الفيل والبعير ، أو بين الثعلب والذيب ! !

ورابعة تلفت نظرنا ، وتثير دهشتنا ، وهى ما أشار إليه فى أول كلامه من أن هذه المناظرة كانت تدور بين شيخين من علماء المتكلمين ومن الجلة المتقدمين ، فما للمتكلمين ولهذا ؟ وما شأن الكلب والديك فى الكلام على الصفات والقدر ، أو المناظرة بين النار والمدر ؟ ! لسنا ننكر أن من أول ما كان يعنى به المتكلمون ، وخاصة المعتزلة ، بيان دقائق صنع الله فى الكون ، وحكمة الله فى الخلق ، على نحو ما فى رسالة « الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير » لأمامنا الجاحظ . فهل نستطيع أن نفهم أن تلك المناظرة إنما كانت تأخذ هذه السبيل وتتجه إلى تلك الغاية ؟ إن من العسير أن تقنع أنفسنا بهذا فى مثل ذلك الذى صوره الجاحظ بين الكلب والديك . وإذا أجزنا ذلك بوجه من الوجوه فانا نتساءل مرة أخرى : ما بالهم لم يختاروا من جميع الحيوان موضوعا لهذه المناظرة إلا ذينك الحيوانين — على ما فى المفاضلة بينهما — فاقتصروا عليهما ، ولم يعدوهما ؟

فالمسألة كما يرى القارئ الكريم غامضة ، لا يكفى فى بيانها ذلك التفسير العام المبهم الذى يفسر به أسلوب الجاحظ جملة واحدة

* * *

إن ذهناً دقيقاً كذهن الجاحظ مارس الفلسفة وأساليب المتكلمين ، حتى صار رأساً لطائفة من المعتزلة تدعى باسمه ، ليس من القريب احتماله أن يأخذ فى الكلام اعتباطاً ، فيناظر بين الكلب والديك وليس بينهما وشيجة أو سبب . فاذا كنا لا نرى بينهما صلة ذاتية ، فلا بد أن تكون بينهما صلة أخرى خارجية ، هى التى مهدت السبيل للمناظرة ، فما هى هذه الصلة وأين نلتمسها ؟

هل هناك صفات أضيفت إلى الكلب تقابل صفات أخرى

أضيفت إلى الديك بحيث يكونان متناظرين ؟ أما أننا يجب أن نتلمس ذلك تلمساً فى روح العصر الذى كتب فيه الحيوان ، وفى التيارات الاجتماعية التى كانت سائرة فيه ، وفى الآثار الأدبية التى بقيت لنا حول هذين الحيوانين

وإذن فأنا أزعم أن هذه المناظرة بين الكلب والديك كانت صدى من أصداء تلك الحالة الاجتماعية الشديدة السلطان فى العصر العباسى ، والتى أخذت تتغلغل فى المجتمع الاسلامى منذ أوائل القرن الثانى ، وبلغت عنفوانها فى عصر الجاحظ وأعنى بها تدافع العنصرين العربى والأجنبى على التأثير فى الحياة مما أنتج تلك الخصومة العنيفة بين العرب والشعوبية ، تلك الخصومة التى جعلت تمتد وتنتشر وتغمر الجو هنا وهنا حتى لم يخلص من سطوتها ذانك الحيوانان المسكينان ، لأن أحدهما كان يضاف إلى العرب والآخر كان يضاف إلى العجم . فالعرب كانوا فى نظر الفرس قوماً جفاة غلاظاً رعاة إبل وغنم ؛ الكلب أصدق أصدقائهم ، وألصق صاحب بهم ، وأعز رفيق لديهم ، وهو ما هو ضعة شأن وهوان منزلة وخبثاً ولؤماً وقذراً ودناءة . والفرس فى نظر العرب كانوا قوماً أنباطاً أصحاب قرية ، قد أخذتهم طبيعة حياتهم بالاستكانة والذلة ، فلا كرم ولا نجدة ولا أريحية ، كل مالهم الدجاج والديكة ، تمثل ضعفهم ، وتبرز بخلهم وضيق حياتهم . وهكذا أخذت الخصومة بين العرب والشعوبية مظهراً طريفاً من الخصومة بين الكلب والديك والتنابذ بينهما

وهنا يجىء دور المتكلمين الذين أشار إليهم الجاحظ ، ونحن نعرف عنهم أنهم لم يساهموا فى هذه العصبية ، وإن نسب المسعودى إلى طائفة منهم شيئاً منها ، فرد عليه الأستاذ الكبير أحمد أمين فى الفصل الذى كتبه عن الشعوبية فى كتابه « ضحى الاسلام » ، فأرادوا أن يحولوا تيار هذه الخصومة العصبية إلى ناحيتهم ، وأن يصبغوها بصبغتهم ، وأن يجعلوا من هذه المناظرة سبيلاً من سبلهم إلى بيان حكمة الله فى المخلوقات ، ودقائق صنعه فى الكائنات . ثم جاء الجاحظ فأخذ هذه المناظرة وجعلها باباً فى كتابه ، فأفاض فيها وتدفق ، وجمع فيها بين الكلام والحكمة والأدب على طريقته

هذه صورة المسألة كما ثبتت لدينا ، لا تكلف فيها ولا تعسف ، وإن بدت فى أول الأمر غريبة . فأما أن الشعوبية كانت تعير العرب باتخاذ الكلاب فأحسبه مما لا نزاع فيه ، فقد كانت لاتفتأ تنحى على العرب المساوئ والمثالب ، ولعل فى هذا القول الذى يرويه الجاحظ عن بعض المتعصبين على العرب ما يدلنا إلى أى حد كان تجنيهم . قال الجاحظ : « وزعم لى سلمويه وابن ماسويه مطيّب الخلفاء أنه ليس على الأرض جيفة أنتن نتنا ولا أثقب ثقوباً [1] من جيفة بعير ، فظننت أن الذى وهمهما ذلك عصبيتهما عليه ، وبغضهما لأربابه »

أما الديك فكان عند العرب من أظهر ألوان الحياة الفارسية ، فهم دائماً يضيفونه إلى العجم . ومن ذلك قول الشاعر :

لعمرى لأصوات الكاكى بالضحى ... وسوء تداعى بالعشى نواعبه
أحب إلينا من فراخ دجاجة ... ومن ديك أنباط تنوس غباغبه

وعن قتادة أن أبا موسى الأشعرى قال :

« لا تتخذوا الدجاج فى الدور فتكونو أهل قرية » ويفسر الجاحظ هذا بأن الديك من خصائص الحياة المدنية ، وكان ولاة العرب حريصين على أن يظلوا عرباً ، وأن يحتفظوا بنواهيهم الحربية التى لا تلبث أن تضعف فيهم ، ثم تتلاشى منهم ، إذا هم ركنوا إلى حياة القرى ، فاتخذوا الديكة التى هى من أبرز مظاهرها

وهكذا نرى أن الصلة وثيقة بين العجم والديك بقدر ما هى وثيقة بين العرب والكلب ، وأن كلا منهما يعتبر من خصائص الحياة الاجتماعية لذويه ، وأن العرب كانوا يكرهون الديك وينفرون منه بقدر ما كان الفرس يعتنون الكلب ويسخرون من أصحابه

وهناك دليل آخر على ما أسلفنا من أن الديك كان شديد الصلة بالأعاجم فيما يرى العرب ، حتى كان يرمز فى العقل العربى إليهم ، وهو — فيما نحسب — دليل قوى ، لأنه يجىء من عالم الأحلام ، ومجالها العقل الباطن فيما يذهب إليه المحدثون من الباحثين . ذلك هو ما حكاه الدميرى فى كتابه « حياة الحيوان الكبرى » قال : « روى مسلم وغيره أن عمر رضى الله عنه خطب الناس يوماً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنى رأيت رؤيا لا أراها إلا لحضور أجلى ، وهى أن ديكاً نقرنى ثلاث نقرات ، فحدثتها أسماء بنت عميس ، رضى الله عنها ، فحدثتنى بأن يقتلنى رجل من الأعاجم » وهناك رواية أخرى للحاكم

(١) يقال ثقبت الرائحة ثقوباً أى سطعت وهاجت

ليست فيها أسماء بنت عميس : « قال على المنبر رأيت فى المنام كأن ديكا نقرنى ثلاث نقرات فقلت أعجمى يقتلنى » ثم إنه مهما تكن قيمة هذه الرواية فان تأويل الديك بالأعجمى بدل وحده دلالة صريحة على ما ذكرنا . ويضاف إلى هذا ما حكاه ابن سيرين من أنهم كانوا يؤولون الكلب الأسود بالعربى . وإذن فقد تم الأمر من وجهيه ، وتضافرت الدلائل على أن ذلك الغرض الذى افترضناه قريب لا تكلف فيه ولا تعسف

* * *

على أن هـذا الغرض — فوق تفسيره لموقف الجاحظ — يفسر لنا طائفة من الأحاديث الموضوعة ، لم نفهم من قبل السر فى وضعها ، والعناية بصنعها ، فنحن نعرف كيف كانت الطوائف المختلفة تجتهد فى وضع الأحاديث ونسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لتأييد مذاهبها ، ونشر الدعاية لمبادئها ؛ ومثل هذه الأحاديث نستطيع فى غير عنت أن ندرك السر فى وضعها . أما تلك المجموعة من الأحاديث التى نحن بصددها فيبدو فى بادىء الرأى أن وضعها كان عبثا ولهوا وسخرية ، وإلا فما ظنك بهذه الأحاديث التى وضعت عن الديك ، ووضعته فى صف الملائكة المقربين . كذلك الحديث الذى ذكره صاحب التهذيب ، فى ترجمة البزى — وقد قال عنه إنه ضعيف الحديث — وهو : « الديك الأبيض حبيبى وحبيب حبيبى جبريل ، يحرس بيته وستة عشر بيتاً من جيرانه » أو ذلك الحديث الآخر : « ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى : صوت الديك ، وصوت قارىء القرآن وصوت المستغفرين بالاسحار » . أو ذلك الحديث الثالث الذى يعتبر بدعة فنية خليقة بالخيال الفارسى المترف ، وقد رواه الطبرانى فى معجمه : « إن لله سبحانه وتعالى ديكا أبيض ، جناحاه مُوَشّيان بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ : جناح بالشرق وجناح بالمغرب ، ورأسه تحت العرش وقوائمه فى الهواء ، يؤذن فى كل سحر ، فيسمع تلك الصيحة أهل السموات وأهل الأرض إلا الثقلين الانس والجن ، فعند ذلك تجيبه ديوك الأرض ، فاذا دنا يوم القيامة يقول الله تعالى ضم جناحيك وغض صوتك ، فيعلم أهل السموات وأهل الأرض إلا الثقلين أن الساعة قد اقتربت » ومثل ذلك كثير مذكور فى الكتب

أفى الحق أن كل ذلك كان عبث عابث ولهو لاه ساخر ؟ أكل ذلك العناء فى وضع تلك الأحاديث ، والتكلف لها وتلفيق أسانيدها ، وذلك الجهد الذى لا نشك فى أنه كان عظيما من أجل إسرارها وإدماجها بين الأحاديث الصحيحة ، أكل أولئك كان لهواً ولعباً لا غاية له ولا هدف يتجه نحوه ؟ ؟

كلا ! وإنما هى الشعوبية التى أسرفت فى وضع الأحاديث عن فارس وسلمان الفارسى وغير ذلك ، هى هى التى أوحت بتلك الأحاديث الغريبة فى تمجيد الديك وتقديسه ، باعتباره رمزاً فارسياً (١)

وإذن فقد استطاع ذلك الغرض أن يكشف لنا عن السر فى وضع تلك الأحاديث الغريبة ، وأن يبين لنا لوناً من ألوان ذلك النزاع بين النزعة العربية والنزعة الشعوبية

محمد طه الحاجرى

(١) ومما يناسب ذكره هذا المقام من كلام الجاحظ قوله — عقب ذكره بعض أحاديث القوم عن أبروبز والفيل (ج ٧ . ص ٥٦ من كتاب الحيوان) — : « واعلم أن هذه الأحاديث من أحاديث الفرس وهم أصحاب تنفيج وتزيد ، ولا سيما فى كل شىء مما فى باب العصبية »

انتظروا فى أول يناير :

الـــرواية

وهى مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدرها ادارة (الرسالة)

وستعتمد فى الغالب على نقل ما راع وخلد من بدائع الأدب الغربى فى القصص على أوسع معانيه من الأقاصيص والروايات والرحلات والمذكرات والاعترافات والنوادر . وسيكون دستورها : الجمال فى الأسلوب ، والحسن فى الاختيار ، والنبل فى الغرض ؛ فترضى الذوق كما ترضى (الرسالة) العقل ، وترفع القصة كما ترفع (الرسالة) المقالة ، وتسجل أدب الغرب كما تسجل (الرسالة) أدب العرب

بدل اشتراكها فى السنة مؤقتاً ثلاثون قرشاً فى الداخل ، وخمسون قرشاً فى الخارج . وكل من يسدد اشتراك (الرسالة) كاملا قبل انتهاء شهر يناير ترسل إليه (الرواية) مجاناً